International Journal of Arabic Language and Literature Studies
المجلة الدولية لدراسات اللغة العربية وادابها
ISSN: 2707-7659
DOI: 10.32996/ijalls
Journal Homepage: www.al-kindipublisher.com/index.php/ijalls

بلاغة المحسنات المعنوية في السور السبع الطوال

دالية أحمد الحجيري -طالبة دكتوراه - قسم اللغة العربيّة وآدابها – جامعة بيروت العربية – الجمهورية اللبنانية.
د. بشير سالم فرج- قسم اللغة العربيّة وآدابها – جامعة بيروت العربية – الجمهورية اللبنانية.

تاريخ استلام البحث: 2026/07/01 **تاريخ نشر البحث: 2026/08/18** **المجلد: 8** **العدد: 2**

الملخص:
يتناول البحث المعنون بـ (بلاغة المحسنات المعنوية في السور السبع الطوال) مفهوم المحسنات المعنوية في نماذج من الآيات في السور السبع الطوال بما يظهر أنواع هذه المحسنات ويضفي جمالية كل محسن معنوي بديعي يظهر في سياق النص القرآني، لأن لكل محسن طريقته الخاصة التي تعكس مزايا الجمالية والتي تعكس في أكثر الأمر الإعجاز النصي القرآني، كما تتجلى أهمية البحث في التماس بلاغة هذه المحسنات في أشهر أنواع المحسنات المعنوية كما في الطباق والمقابلة والتورية ومراعاة النظير.
الكلمات المفتاحية: المحسنات، المعنوية، بلاغة.

The Rhetorical Significance of Semantic Enhancements in the Seven Long Surahs

Dalia Ahmad Houjairy, PhD Student, Department of Arabic Language and Literature, Beirut Arab University, The Republic of Lebanon
Dr. Bashir Salem Faraj - Department of Arabic Language and Literature, Beirut Arab University, The Republic of Lebanon

Corresponding Author: Dalia Ahmad Houjairy, **E-mail**: Cezar_dado@hotmail.com

RECIEVED: 01 July 2026 **PUBLISHED:** 18 August 2026 **DOI:** 10.32996/ijalls.2026.8.2.6

Abstract
This study, entitled "The Rhetorical Significance of Semantic Embellishments in the Seven Long Surahs," examines the concept of semantic rhetorical devices through selected Qur'anic verses from the Seven Long Surahs. It highlights the various types of these rhetorical devices and demonstrates the aesthetic value that each semantic embellishment contributes within the Qur'anic discourse. Each device possesses its own distinctive rhetorical function, reflecting unique aspects of beauty and, in many cases, revealing the textual inimitability of the Qur'an. The significance of this study lies in exploring the rhetoric of the most prominent semantic embellishments, including antithesis, correspondence, double entendre, and semantic correspondence, among others.

Keywords: embellishments, semantic, rhetoric.

أهمية البحث:

تتجلى أهمية البحث في تناول مفهوم الأثر الجمالي الذي يتركه التوظيف لأنواع المحسنات المعنوية في علم البديع، وكيفية التماس هذه الجمالية في خصوصية النص القرآني، كما تنعكس بلاغة المحسنات المعنوية في الوقوع على مظاهر العناية البلاغية كما يظهر في تناول المحسن المعنوي في السياق الذي يرد فيه.

منهج البحث:

لقد اعتمدنا في دراستنا على منهج وصفي تحليلي الأول منهما كان مساعداً في التدرج التنظيري لمفهوم المحسن المعنوي ، والثاني منها كان مساعداً في الإجراء التطبيقي الذي تم فيه إسقاط التنظيري على دراسة عناصر البلاغة المفهومة من توظيف المحسن المعنوي البارز.

مفهوم المحسنات المعنوية وجمالياتها في النص القرآني

لقد شكّل مفهوم التحسين البديعي المعنوي جانباً يسيراً، انطلق منه الباحثون للدراسة والتناول لما يوضح الناحية الجمالية في تلقي النص القرآني، ذلك أنَّ المحسنات المعنوية في اللغة فيها من التفسير الدلالي لمعنى (معنوية) بأنَّ المعنوية في "عنى - يعني - عناية فهو معنوي، أي يقصد بشيء والياء إلى المعنى والتاء تاء تأنيث المؤنث" (معلوف لويس (د:ت)، المنجد في اللغة والأعلام، دار المشرق، بيروت، ص ٥٣٥).

ومن جهة أخرى، فإنَّ المحسنات المعنوية يُقصد بها تحسين سياق التكلّم، إذ تزيد الكلام حسناً و رونقاً لما يكون عليه "والمحسنات المعنوية هي التي يكون التحسين بها راجعاً إلى المعنى أولاً وبالذات" (المراغي مصطفى (١٩٩٣)، علوم البلاغة والبيان، دار الكتب العلمية، ط٣، بيروت، ص ٣١٩)، المعنى الذي يعزّز التأكيد على أنَّ المحسن المعنوي بخلاف ما يكون عليه المحسن اللفظي، لأنَّ تركيز الأولى على المعنى في السياق الذي يرد فيه قبل أي شيء آخر .

كما يقتضي فهم المحسنات المعنوية تفسير معنى التحسين من أنَّ "حسّن - يُحسّن - تحسيناً ، فهو محسن، أي زيّنه وجعله حسناً، والألف والتاء فيها دلالة على جمع المؤنث السالم، وأما المعنوية لغة، فهي من كلمة المعنوية، معناها خلاف المادي وخلاف الذاتي " (معلوف، المنجد في اللغة والأعلام، مرجع سابق، ص ٧٢٦) .

وإذا كانت المحسنات البديعية هي من الوسائل التي يُستعان بها لإظهار قصد معين لخلق تأثيرها في النفس، فإنها في الجانب المعنوي تستهدف تحسين المعنى أساساً، وإن كانت تفيد تحسين اللفظ ، لأنَّ إرجاع التحسين أول ما يكون فيها في ناحية المعنى، ثم يتم بعد ذلك الالتفات إلى اللفظ، فتعمل حينئذٍ المحسنات المعنوية على تحسين المعنى مع وضوح الدلالة المرجوة من الكلام، والخالية من الغموض المفرط المؤدي إلى التعقيد، "فالمعنوي هو عبارة عما يزيد المعنى حسناً" (عبد الكافي أحمد، السبكي (١٤٢٣هـ)، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، طا، بيروت، لبنان، ٢/٢٢٥).

ولعناصر المحسنات المعنوية أهمية في تلقي الأثر الجمالي في إعجازية النص القرآني، ولتجليات المحسن اللفظي ما قد يكون عن طريق المطابقة أو الطباق، إذ يسمى الطباق والتطابق والمشتق من طبقَ، ففي اللغة أنَّ الطباق "الجمع بين الشيئين وفي القرآن سبع سماوات طباقاً" (النويري شهاب الدين (١٤٢٣هـ)، نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٧/٩٨)، وقد نُظر إلى الطباق كأحد أنواع المحسنات المعنوية على أنه المقصود به هو الجمع بين الشيء وضده في الكلام، "فقد أجمع الناس على أنَّ المطابقة في الكلام هي الجمع بين الشيء في جزء من أجزاء الرسالة او الخطبة أو بيت من بيوت القصيدة مثل الجمع بين السواد والبياض والليل والنهار ..." (العسكري-أبو هلال (1419 هـ)، الصناعتين، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العنصرية، بيروت، ص ٣١٦).

حيث شاع فهم الطباق كمحسن معنوي مع فهم المقابلة وكلاهما يقودان إلى مفهوم تحسين المعنى، "فهناك كثير من البلاغيين يرون أنَّ المقابلة نوع من الطباق، وأنها داخلة فيه" (ابن معصوم (1969)، أنوار الربيع في أنواع البديع، تحقيق: شاكر هادي شكر، مطبعة النعمان، النجف الأشرف، ٢/٣١).

وقد نُظر إليها على أنها نوع مستقل اي المقابلة هي أن "تجمع بين شيئين متوافقين أو أكثر، وبين ضديهما.. فنحن إذ نتعرّض للمقابلة على أنها لون من ألوان المحسنات البديعية ، فلسنا بعيدين عن الطباق، بل ما زلنا في رحابه" (فتحي عادل (د:ت)، نماذج للمقابلة الجيدة وأثرها في الكلام، عادل فتحي ، بحث في دراسات بلاغية، قسم اللغة العربية – كلية اللغات، جامعة المدينة العالمية، شاه علم - ماليزيا، ص ٢).

وفي ظل ما يؤديه معنى الطباق كمعنى يقوم على إبراز فهم المقصود من التضاد الحاصل بين طرفي الصورة المتضادة، فإنَّ الطباق يُقسم بدوره إلى حقيقي ومجازي، وكل منهما إما أن يكون لفظياً أو معنوياً، ومن الطباق اللفظي ما يكون عن طريق السلب والإيجاب، "هو ما جاءت فيه إحدى الكلمتين منفية، والأخرى مثبتة، أو أحدهما منهي عنها والأخرى مأمور بها" (ابن معصوم، أنوار الربيع في أنواع البديع، مرجع سابق، ص ٩١).

ومن مثال هذا النوع من الطباق الذي يطلعنا على جماليته في تشكيل النص القرآني ما جاء في سورة البقرة نحو قوله تعالى {يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ} (سورة البقرة، الآية ٩)، فالتقابل التضادي الحاصل عن طريق المحسن البديعي المعنوي (الطباق) يفتح مجالاً لآلية تلقّي هذه الصورة الطباقية (يخادعون ، وما يخدعون) ، حيث إنَّ التفسير المعنوي لها هو ما يكمن خلف آلية الحكمة من هذا التضمين للأسلوب البديعي، ففي الجزء الأول من هذه الثنائية (يخادعون الله) فيه من التدليل الوصفي على الحالة أو الهيئة التي يصدر عنها هؤلاء باعتبارهم فئة مقصودة بالتثبيت لصفة (الخداع) والتنكّر ليتم ذلك في الإسناد إلى أنَّ الخداع مقصود لذات الله عز وجل واللذين آمنوا بقصد وإرادة مسبقة، الأمر الذي يخلق لدى المتلقي حالة من الدهشة في القدرة على تفسير الالتفات من الإثبات في قوله تعالى (يخادعون الله) إلى نفي هذه الصفة (وما يخدعون إلا أنفسهم) ، وذلك تأكيداً على إنكار أو استنكار ما يقوم به المضللون المخادعون الذين يحسبون أنفسهم قادرون على ذلك .

ومن ناحية توظيف طباق السلب والإيجاب، فالمشار إليه هو أنَّ الله تعالى يبيّن للمنافقين أنهم يخادعون أنفسهم بإظهارهم إيمانهم على الرغم من أنهم يسترون كفرهم وجحودهم، فقال (يخادعون الله)، وتمت المقابلة في اعتقادهم بقوله تعالى (وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون) ، وذلك لأنَّ المنافق يظن أنه يُحسن لنفسه ، وهو بذلك يوقعها في غضب الله، فذلك خداع المنافق نفسه، مما يؤدي في الوقت نفسه إلى تفسير جمالية توظيف الطباق وهو صورة طباق السلب بإيجاب الخداع ونفيه لأنهما ضدان .

وقد يكون الطباق من نوع طباق الحقيقة وهو "الطباق الحقيقي الذي يكون طرفاه بألفاظ الحقيقة اسمين أو فعلين أو حرفين مختلفين" (لاشين عبد الفتاح، البديع في ضوء أساليب القرآن، مرجع سابق، ص ٣٦)، أما طباق المجاز و هو ما كان طرفاه أو أحدهما مجازاً" (ابن الأثير ضياء الدين

(1998)، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، حققه الشيخ كامل عويضة، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، ج1، ص ٢٧)، على اختلاف مسميات الطباق وتوظيفاتها ومصطلحاتها، فإنَّ الطباق هو من أهم المحسنات البديعية المعنوية، لأنه في الحقيقة يخدم هدف التحسين في اللفظ، كما يخدم هدف التحسين في المعنى، ومما يلفت إلى أهميته ما يقوم عليه في معنى (الضدية)، مما يلفت النظر إليه، وبذلك فإنَّ الطباق أساس جمالي مهم في جمال التتابع النصي، ومحور معنوي تدر حوله ظلال وايحاءات متعددة .

وقد يتم تقاطع هذا الفهم للطباق ما يتضافر مع مفهوم التورية ، فالتورية لغة "مصدر وَرَيْتُ، وريت الشيء وواريته، أخفيته وتوارى هو: استتر" (ابن منظور، لسان العرب (1414هـ)، دار صادر، بيروت، مادة ورى، ص ٢٣٠)، وفي الاصطلاح فإنَّ التورية "هي أن تكون الكلمة بمعنيين ، فتريد أحدهما ، فتوري عنه بالآخر، وهي أن تكون الكلمة تحتمل معنيين ، فيستعمل المتكلم أحد احتماليها ويهمل الآخر، ومراده ما أهمله لا ما استعمله" (ابن أبي الإصبع العدواني المصري، عبد العظيم (٢٠٠٨)، تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، تحقيق : حفني شرف، دار المساهمة، مصر، ص ٣٦٨).

ومنه ما جاء في سياق النص السابق نحو قوله تعالى {يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ} (سورة البقرة، الآية ٩)، فالتورية حاصلة من ناحية المعنى وما يضفيه التورية كمحسن بديعي معنوي ، فقد ذكر الله سبحانه وتعالى المنافقين بلفظ الخداع، وذلك لتثبيت الإشعار بأنهم لمّا حاولوا أن يخادعوا من لا يخدع، كانوا مخادعين لأنفسهم، لأنَّ الخداع إنما يمكن وقوعه من لا يعلم البواطن والأسرار "وأمّا من يعلم البواطن والأسرار فالذي دخله في الخداع فإنما لا يخدع إلا نفسه، وهو لا يشعر بذلك ، والحاصل أنَّ المنافقين يمنونها أمانيهم الباطلة، وتلك هي حقيقية النفس وذاتها" (ابن المعتز (1990)، البديع في البديع، دار الجيل، ص ٤٨)، وبذلك فإنَّ تفسير التورية إذا كان القصد منها "أن يذكر المتكلم لفظاً مفرداً له معنيان، قريب ظاهر غير مراد، و بعيد خفي هو المراد" (عتيق عبد العزيز (د:ت)، علم البديع، مكتبة دار النهضة العربية، ط١، بيروت، ص ١٢٢)، وتفسير ذلك أنَّ الخداع قد أحدث أكثر من معنى، فالمعنى الأول هو الظاهر من أنَّ الخداع قد يفسّر معنى التنكّر والتحقق للطرف الآخر، إلا أنَّ المقصود من هذا التوظيف ما هو أبعد من ذلك ، أي بمعنى أنَّ التورية مقصودة للبعد الآخر من أنَّ الخداع عائد إلى ذوات المنافقين ومردود عليهم .

ومن جمالية التورية أنها تُطلق على اللفظ المفرد الذي يحمل معنيين حقيقيين أو حقيقة ومجازاً، أحدهما قريب ودلالة اللفظ عليه ظاهرة والآخر بعيد ودلالةُ اللفظ عليه خفية مستترة، وللتورية عناصر عدة منها (الحموي، خزانة الأدب، ٢/٢٣٩):

١ -لفظ يحمل معنيين بينهما تفاوت في القرب والبعد الدلالي.

٢ -لفظ قريب ظاهر غير المراد، يحصل به الخفاء ويُسمى (المورى به).

٣ -لفظ بعيد خفي، يقع عليه الخفاء لقلة استعماله ويُسمى (المورى عنه).

٤ -قرينة في الأسلوب دالة على المعنى البعيد الذي يقصده المتكلم.

وقد يقترب من أسلوب التورية في دلالته الاحتمالية ما أطلق عليه البلاغيون مصطلح (التوجيه)، حيث يتجلّى في هذا الأسلوب البديعي علاقة الإيهام وهو ما يعني "إيراد الكلام محتملاً معنيين متضادين: كالمدح والهجاء ليبلغ غرضه الذي يريده بما لا يمسك عليه، و بمعنى آخر هو الإتيان بكلام يحتمل وجهين من المعنى احتمالاً مطلقاً من غير تقييد، فيستعمل المتكلم أحد الاحتمالين ويهمل الآخر، ومراده ما أهمله لا ما استعمله" (القزويني (د:ت)، الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل - بيروت، ص ٣٨٤).

ومن ناحية أخرى فإنَّ احتمالية المعنى الموجّه عن طريق التورية ما أُطلق عليه (الإيهام) ، ذلك أنه يفيد إيهام السامع بأحد الاحتمالين، ومن مثاله ما جاء في نحو قوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا ۗ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ} (سورة البقرة، الآية ١٠٤)، فقد أقبل المفسّرون على دلالة التورية من خلال تفسير الأسلوب التوجيهي، بمعنى أنَّ ما يمكن فهمه من هذا السياق في لفظة (راعنا) أنها تحتمل أكثر من معنى، ومنها "توجيه دلالة (راعنا) من باب المدح، أي امنحنا رعايتك وتأنّ بنا، وتوجيه دلالة (راعنا) من باب الذم" (الزمخشري (1987)، الكشاف، ضبطه وصححه ورتّبه: مصطفى حسين أحمد، دار الريان للتراث بالقاهرة - دار الكتاب العربي ببيروت، ١/١٦١).

ومن التورية المفسّرة للإيهام الذي يدخل في ناحية التوكيد ما جاء في سورة التوبة في نحو قوله تعالى {لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ} (سورة التوبة، الآية ١٠٨)، ففي قوله تعالى (فيه فيه) هو إيهام التوكيد ، فإنَّ السابع يظن من أول نظرة أن الثانية فيها من التأكيد للأولى .

ومن مثال التورية ما جاء في الآية التي تعكس شأن اليهود وموقفهم من النبي (ص) وكلامهم معه الذي يحتمل ظاهرة الاحترام والتوقير وباطنه السخرية والاستهزاء، ومثاله قوله تعالى {مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا} (سورة النساء، الآية ٤٦)، وفي هذا السياق نلمح تورية من خلال ما يقوم عليه التركيب من احتمال معنيين متضادين، فالمعنى الأول يحتمل الذم وتفسيره "أي أسمع - مدعوا عليك - بلا سمعت أو أسمع: غير مجاب ما تدعو إليه، فكأنك لم تسمع صوتاً من متكلم، لأنه يصير أصم لا يعي) (الزمخشري، الكشاف، مرجع سابق، ١/٤٥١.(

والمعنى الثاني قد يحتمل المدح لأنَّ اللفظ يوهم أنهم قصدوا الظاهر المتبادر من قولهم ، "وكذا الحال في قولهم (راعنا) وقصدهم من إيراد كلام ذي وجهين أن يُرضوا الرسول (ص) والمؤمنين ويُرضوا أنفسهم بسوء نيتهم مع الرسول (ص) فلا يجدوا عليه حجة" (ابن عاشور، التحرير و التنوير (1984)، الدار التونسية للنشر - تونس، ٥/٧٤).

ومن الأشكال المعنوية في التحسين البديعي ما يكون عن طريق الاعتراض، وهي أن تأتي في التركيب بجملة معترضة لا تكون زائدة بل تحتوي على فائدة كلامية بلاغية، وتم التفسير لهذا الاتجاه البديعي أنه يمثّل "اعتراض كلام في كلام ثم يتم معناه ثم نعود إليه المتكلم أو الكاتب فيتمّه" (ابن المعتز، البديع في البديع، مرجع سابق، ص ٥٩).

وقد يكون توظيف المحسن البديعي المعنوي في باب تجسيد حكمة إلهية يُقصد إلى تثبيتها في ذهن المتلقي، ومن مثالها ما جاء عن طريق (المقابلة) على سبل الجمع بين الأشياء المتوافقة وبين ما يكون عن طريق إثبات ضدها، ومنه ما جاء في نحو قوله تعالى {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} (سورة البقرة، الآية ٢١٦) .

إنَّ أول ما يلفت في جمالية التعبير الذي تشير إليه المقابلة أنَّ الجملة الثانية (وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شرٌّ لكم)، قد جاءت معاكسة للجملة الأولى (وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم)، فالكره والخير في مقابل الحب والشر، أي أنَّ استدعاء الطرف الأول يلزم استدعاء الطرف الثاني ليستقيم المعنى ، ويتم إتمام الفكرة التي أشار إليها سياق النص القرآني، ومن هذه الناحية نلاحظ أنه من ناحية اتساع المعنى للمقابلة ما يكون أكثر انفتاحاً ودلالة من المعنى الذي نجده في (التضاد)، وذلك عائد لأسباب تتلخّص في أنَّ المقابلة تكون لأكثر من ضد ، والطباق لا يكون إلا بين ضدين غالباً، كما أنَّ المقابلة تكون بين الأضداد وسواها، إلا أنَّ الطباق لا يكون إلا بالأضداد" (الزركشي بدر الدين (١٩٥٧)، البرهان في علوم القرآن ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، عيسى الحلبي، دار التراث، القاهرة، ط١، ٣/٤٥٨).

ومن المحسنات المعنوية التي يُراد بها تحسين المعنى من خلال تفسير كافة المعطيات التي تترك إشاراتها في النص ما يكون عن طريق ما لم يتم تحديده في سياق الكلام لتجاهل العارف أو أن يكون المعلوم مكانه ، وقد يقصد به المزج بين حالتين إحداهما معلومة والأخرى مجهولة بمعنى هو "إخراج ما يعرف صحته مخرج مما يشك فيه ليزيد بذلك تأكيداً" (العسكري، كتاب الصناعتين، مرجع سابق، ص ٣٩٦).

ومن مثال هذا اللجوء إلى هذا التحسين المعنوي ما جاء في سورة المائدة في نحو قوله تعالى {وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ} (سورة المائدة، الآية ١١٦).

وقد يكون الطباق والمقابلة في سياق تحسين المعنى ما يُؤدى بدوره عن طريق الجمع بين أكثر من فكرة أو التفريق، فالتفريق هو أن "تقصد إلى شيئين من نوع، فتوقع بينهما تباينا"(السكاكي (1987)، مفتاح العلوم، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ص ٤٢٥).

ومن مثاله ما جاء في نحو قوله تعالى {يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ، وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} (سورة آل عمران، الآية ١٠٦-١٠٧)، إذ يُسهم التفريق في ضرورة التنبّه إلى حالة المفارقة الحاصلة بين الأمور التي تجري فيها التفريق، ففي الحالة الأولى فيها من الإشارة إلى هؤلاء الذين اسودت وجوههم نتيجة لكفرهم بعد أن كانوا على عهد الإيمان، فلاقوا مصيرهم بالعذاب نتيجة لذلك، فإنَّ تصوّر هذه الحالة لا يتم ترسيخ معناه ما لم يتم اقترانه بالطرف الثاني المفارق له كما جاء في قوله تعالى يشير إلى أنهم من ابيضت وجوههم واستحقوا بذلك الرحمة من الله تعالى نظراً لما كانوا عليه من حسن المآل.

إذ يحضر الطباق كمحسن معنوي يفسّر حالة المفارقة بين من يبيضّ وجهه ومن يسوّد وجهه، لتأتي أسلوبية التفريق في توضيح المعنى المراد من حالة الطباق المؤسسة لهذا الفهم ، فيتم التفريق بعد عرض كل سبب ومؤداه الذي ينتهي بنتيجة مؤكدة وفق ما جاء مشاراً إليه في قوله تعالى، وكأن التفريق هنا قد أسهم في تغريز معنى تقسيم البشر إلى فئتين ستلاقي مصيرها في ذلك اليوم المشار إليه في نحو قوله تعالى، فالبشر قسمان إما من الذين تبيض وجوههم أو تسوّد خلاف ذلك.

ومن جماليات التعبير بالمحسنات المعنوية ما قد يرتكز على ناحية المعنى لمعرفة الغرض الكلامي الذي يخرج إليه سياق النص، ومنه ما يكون عن طريق (حسن التعليل) ، ولعلَّ ما يُقصد به "هو أن يريد المتكلم ذكر حكم واقع ، أو متوقّع فيقدّم قبل ذكره علّة وقوعه، لكون رتبة العلة أن تقدّم على المعلول" (ابن أبي الإصبع العدواني المصري، تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، مرجع سابق، ص ٣٠٩)، ومن مثال هذه الناحية التعبيرية بوساطة المحسن البديعي المعنوي لحسن التعليل والتفسير ما جاء في نحو قوله تعالى {وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ} (سورة الأنفال، الآية ٦٢).

فالتفسير الكامن الذي يُعطيه تضمين المحسن المعنوي عائد إلى ما أراده الله تعالى في تذكير الحكم الواقع وهو إرادة الخداع في قوله (وإن يريدوا أن يخدعوك) ، لتكون النتيجة متعلّقة بالمسبب الشرطي ، بمعنى إنَّ تحقق الثانية جاء مرادفاً لتحقق الأولى ومشروطاً بها ، لتكوّن العلة سبباً في الوقوع، "فإنَّ حسبك الله هو الذي أيدّك بنصره)، وما ذلك التوظيف فيما يُسمَّى بـ (حسن التعليل) إلا ليأتي مشروطاً تعلّق العلة بذكر المعلول والترابط المنطقي السببي الذي يُلاحظ في سياق النص.

وقد يتحقق تحسين المعنى عن طريق ذكر محسن بديعي معنوي من خلال ما جاء في معنى الاطراد ، والذي يُعرّف على أنه ما يتم فيه "أن يورد المتكلم أسماء لآباء ممدوحه منسوب بعضها إلى بعض مرتبة على حكم ترتيبها في الميلاد" (ابن أبي الإصبع المصري، بديع القرآن، مرجع سابق، ص ١٤١).

وهذا النوع من التحسين الكلامي المعنوي يجعل القارئ في حالة دهشة لما قد لا يتوقعه في آلية الترتيب والتنظيم الكلامي، ومن مثاله ما جاء في نحو قوله تعالى {وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ} (سورة يوسف، الآية ٣٨).

وقد نرى أنَّ توظيف المحسن اللفظي قد يتم عن طريق ما يُسمَّى بـ (الإدماج) المعنوي الذي يُستدل عليه بطريق إحدى القرائن المعنوية التي يتركها التوظيف النصي، والتي يُطلق عليه لفظ (المضاعفة) وقد عُرّف الإدماج "وهو أن يتضمن الكلام معنيين: معنى مصرّح به ومعنى كالمشار إليه" (أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين ، مرجع سابق، ص ٤٢٣).

ومن مثال هذا النوع من التحسين البديعي المعنوي ما جاء في قوله تعالى {وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ} (سورة يونس، الآية ٤٢)، فإذا أردنا تتبع ماهية المعنى المصرّح به في قوله تعالى من أنَّ الاستماع وتحققه مجال واسع، إلا قدرة الله تعالى وحكمته في إسماع الصم، مؤكدة حتى وإن كانوا لا يعقلون، بما يؤكد الصور الإعجازية التي يفسّرها النص القرآني الوارد.

بلاغة المحسنات المعنوية

يعكس استخدام المحسنات البديعية المعنوية بلاغتها الذي يكشف عنها السياق النصي، فقد شاع أنَّ من الأغراض البلاغية التي تخرج لمعان متعددة ما جاء في المحسن فيما سُمّي بـ (تجاهل العارف)، وهو من مباحث علم البديع الذي يظهر كمحسن بديعي معنوي، إلا هذا المحسن مرتبط بالنص القرآني من خاصية الأسئلة القرآنية التي جاءت على لسان الباري والتي تخرج لغايات محددة ، فقد عُرّف بأنه "هو إخراج ما يُعرف صحته مخرج ما يشك فيه ليزيد بذلك تأكيد" (العسكري، الصناعتين، مرجع سابق، ص 96).

ومن مثاله ما جاء في نحو قوله تعالى {إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ} (سورة المائدة، الآية ٩١)، فهذا الأسلوب يتم عن طريق إطار الاستفهام حيث تكمن بلاغته في أنه أكثر تأثيراً في المخاطب من الأمر الواقعي لأنَّ صيغ الأمر تُستعمل لطلب القيام بأمر ما، إلا أن بلاغة المحسن (تجاهل العارف) فيه من الجمع بين الأمر من جهة ونوع من التهديد والوعيد من جهة أخرى، حيث إنَّ الخالق عزَّ جلاله يطرح الأمر في شكل استفهامي لخلق أكبر تأثير في نفوس المخاطبين وليوبخّهم في حال ميلهم إلى ما ينافي المسموح به .

ومن بلاغة (تجاهل العارف) في تحسين المعنى من جهة وإكساب السياق الناحية البلاغية ما جاء في صيغة تدعو إلى هذا المعنى، ومنه ما جاء في سياق الاستفهام الذي خرج للانكسار، ومنه قوله تعالى {وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} (سورة الأعراف ، الآية ٢٨) .

والمتفق في المعنى الاستفهامي الذي يخرج اليه سياق الآية الكريمة فيه من "إنكار لإضافتهم القبيح إليه وشهادته على أنَّ مبنى قولهم على الجهل المفرط " (الزمخشري، الكشاف، مرجع سابق، ص ٩٩)، وبلاغة الاستخدام يعكس الإشارة إلى التركيز على أنَّ عمل الكافرين في الافتراء، لذلك الحكمة الإلهية كانت من خلال عكس سوء عمل الكافرين بأضعاف مضاعفة من جهة ، وقد يكون (تجاهل العارف) كمحسن بديعي معنوي بما يتضافر مع الاستفهام الذي يُفهم منه بلاغة التوبيخ بطريقة غير مباشرة تدعو إلى استنطاق النص، ومنه ما جاء في الاستفهام في قوله تعالى {قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} (سورة المائدة، الآية) .

ومن بلاغة هذا التوظيف البديعي، ما يخرج لغرض بلاغي يُسمّى (التخفيض)، ومنه قوله تعالى {أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} (سورة التوبة، الآية ١٣)، وقد يكون التوظيف التحسيني المعنوي (تجاهل العارف) بقصد التشويق في إشارة للمخاطب من قبل المتكلم وذلك بقصد منه للتشويق وإثارة الترغيب والذي هو من أكثر الطرق تأثيراً في المخاطب ، ومن مثال هذا اللجوء ما جاء في نحو قوله تعالى {مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} (سورة البقرة، الآية ٢٤٥).

فكل توظيف للمحسن المعنوي ما يطلعنا على غرض بلاغي يتضافر بدوره مع المؤدّى الدلالي ، ومنه ما يكون عن طريق التوبيخ والذي يقود بدوره إلى أغراض بلاغية أخرى كالأمر والنهي، إذ يتسع الفهم الدلالي ليشمل كل هذه الأغراض البلاغية التي يتكون منها المعنى الذي يترك ذكر المحسن المعنوي ومثاله قوله تعالى {فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ۖ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ} (سورة الأعراف، الآية ٢٢)، فقد جاء في تفسير الزمخشري أنَّ المقصود من ذلك "عتاب من الله تعالى وتوبيخ وتنبيه على الخطأ، حيث لم يتحذّر ما حذرهما الله من عدوه الشيطان" (الزمخشري، الكشاف، مرجع سابق، ٢/٩٤)

فالغاية البلاغية وراء توظيف (تجاهل العارف) لا تقف عند حدود التسمية فقط، بل إنها تخرج لأغراض بلاغية يُحددها السياق الذي ترد فيه كالنفي أيضاً الذي يخلق في ذهن المخاطب، نفي بديهي، وكثيرة هي الأمثلة في النص القرآني التي تعكس ماهية اتباع الأوامر وكسب الرضا الإلهي، ومثاله قوله تعالى {أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} (سورة آل عمران، الآية ١٦٢).

ولعلَّ بلاغة النص السابق ما يلفت فيها خلال التحسين المعنوي إلى أنَّ نفي التساوي حاصل بين من يسير في مسار يعكس رضا الله تعالى ونفيه عن كل من شمله الغضب، فكان بذلك من أصحاب النار .

ومن بلاغة المحسن البديعي المعنوي ما ينعكس عن طريق مراعاة النظر، إذ يتقاطع الفهم في (مراعاة النظير)، بما تقوم عليه الألفاظ الملائمة بعضها لبعض، وقد نرى بلاغة هذا المحسن من خلال صوره المختلفة، ومنها ما يكون عن طريق ائتلاف اللفظ مع اللفظ، ومن بلاغته ما نجده في تفسير قوله تعالى بالاعتماد على مراعاة النظير لتقريب الصورة الحاصلة ، ومنه قوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۗ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} (سورة التوبة، الآية ٣٤).

حيث نلمح العناصر البلاغية من خلال ما تقوم عليه الصورة القرآنية من الجمع بين الأمور المتناسبة ، مما يلفت إلى الوقوف عند اجتماع لفظي (الذهب، الفضة) بشكل متوال للدلالة على لفظين ينتميان إلى دلالة معينة لها صورة واضحة، وذلك لا على سبيل التضاد، بل بما يحقق مراعاة توافق الألفاظ المتناظرة ذلك أنَّ "الذهب والفضة متناسبان لتقارنهما في الخيال، وكونهما النقدين الأساسين في التعامل، ومن طبيعة النفوس اقتناؤهما" (لاشين عبد الفتاح (1999)، البديع في ضوء أساليب القرآن، دار الفكر العربي، القاهرة، ص ٣٩)

فالمقصود من التوظيف للألفاظ المتناظرة يخلق بالضرورة المستوى البلاغي والدلالي، فقد جاءت هذه الألفاظ للهدف العام من السورة في "تحرير الإنسان وتخليصه من قيد الشهوات والشبهات اللتين تسلبانه وتجردانه من إنسانيته وإرادته" (قادر فخرية (٢٠١١م)، تجليات الدلالة الإيحائية في الخطاب القرآني، سورة التوبة أنموذجاً، ط١، عالم الكتب الحديثة، أربد، الأردن، ص ٦) .

ومن المظاهر البلاغية لـ (مراعاة النظير) ما يشير إلى خصوصية التجاور بين الألفاظ المتناظرة والتي لا يمكن أن يفهم المعنى الكلي المراد ما لم تتابع، ومنه قوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا ۘ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} (سورة المائدة، الآية ٢).

حيث تعكس الناحية البلاغية ما يجمعه التعبير القرآني من الأمور المتناسبة التي تتصل بالبيت الحرام والحج والنسك في أسلوب مرتكز على التلاؤم ، لأنَّ الألفاظ المجموعة والمرتبطة في حقل واحد في التداول والاستعمال لم نر فيها ألفاظ غريبة غير متناسقة المعنى في مجاورتها، فالألفاظ (الهدي، القلائد، الشهر الحرام) جميعها ما يفسّر المعنى الواحد الذي يتصل لتفسير لوازم الحج .

وقد تكون المعاني البلاغية الظاهرة عن طريق مراعاة النظير من خلال ما يُعرف بـ (ائتلاف اللفظ مع المعنى) بما يفسّر الحكم في قوله تعالى، حيث يقوم هذا النوع من التناسب على ملاءمة الألفاظ في نظم الكلام لمقتضى المعنى، بحيث إذا كان المعنى غريباً جاءت ألفاظه غريبة، ومن هذا اللجوء لتفسير المواءمة واستشعار بلاغة التعبير خلال ذلك ما جاء في نحو قوله تعالى {فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ} (سورة الأعراف، الآية ٢٠).

فالألفاظ كلها تُحيل إلى مراعاة النظير بين الألفاظ المتناظرة بلاغياً، وبلاغتها تكمن في دلالتها في المعنى الذي يكشف عن عمل الشيطان الذي يُغري بتحسين المعصية وتزيينها في أعين الناس، وذلك بفعل الإشارة إلى الوسواس وهو الوسيلة للدخول إلى القلب، فجاء بذلك اللفظ متناظراً مؤتلفاً مع المعنى المراد إيصاله.

كما أنَّ من بلاغة مراعاة النظير ما يستدعي استجلاء المعنى لارتباطه بسياقه، وهو ما يكون عن طريق ائتلاف المعنى مع المعنى، ومثاله ما جاء في قوله تعالى {وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} (سورة البقرة، الآية ٥٤).

فالمعنى البلاغي الذي تتركه جملة القرائن المؤدية للمعنى من خلال مراعاة النظير لتفسير ائتلاف المعنى مع المعنى ، حيث قرنت التوبة بالبارئ دون غيره من الأسماء المناسبة المعنوية، فالألفاظ المحسنة أفادت في توضيح معنى التناظر بين الألفاظ (ظلمتم ، بارئكم، أنفسكم)، وتفسير التتابع والتناظر أنَّ المعنى البلاغي يُقصد به المعنى الدلالي في الإعجازي للنص القرآني، والذي يشير إلى أنَّ الله تعالى قد أنعم على بني إسرائيل من خلال ما خصّهم من النعم والتي تتمثل في أكثر الأمر في حالة نجاتهم من آل فرعون بعد أن لاقوا العذاب الكبير منهم ، كما تمَّ التغريق والنجاة من الغرق في البحر .

وقد يُسمَّى بـ (إيهام التناسب)، وقد يفسّر مراعاة النظير تشابه الأطراف، ومن مثاله ما جاء في نحو قوله تعالى {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ} (سورة البقرة، الآية ١٧)، إذ يتناول الخطاب القرآني في هذا السياق مثلاً للمنافقين، في أنَّ حالهم وهم يلجؤون إلى التخفي والاستتار كالذي أوقد ناراً ليبصر ما جرى حوله، وما جاء يوضّحه السياق (فلما أضاءت ما حوله ذهب الله..)، فالمتلقي قد أحاط وتصوّر حال المنافقين، وتفسير ذلك: "والسرّ في ذكر النور مع السباق يقتضي أن يقول بضوئهم مقابل أضاءت، هو أنَّ الضوء فيه دلالة على الزيادة فلو قال بضوئهم ، لأوهم الذهاب بالزيادة وبقاء ما يُسمَّى نوراً والغرض هو إزالة النور عنهم رأساً وطمسه أصلاً" (الصافي محمود (١٤١٨هـ)، الجدول في إعراب القرآن، مؤسسة الإيمان، دار الرشيد، ط٤، دمشق، سوريا، ١/٦٢)، لذلك فإنَّ هذا المحسن (مراعاة النظير) فيه من التجسيد لتقريب الفهم لذهن المتلقي.

ومن أوجه البلاغة في السياق البديعي المعنوي ما يلفت إلى أهمية مراعاة مقتضى الحال، ولا سيما ما نجسده في خطاب النص القرآني، والذي قد يكون من خلال بلاغة الإطباق، ومن مثاله ما جاء في نحو قوله تعالى في صورة طباقية بلاغية { لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ} (سورة آل عمران، الآية ٢٨) .

فالبلاغة في اجتماع الضدين بشكل متتال يستدعي الانتباه لفهم الفكرة الكامنة وراء هذا التوظيف (المؤمنون، الكافرون)، وفي ذلك إشارة واضحة في التنبيه إلى أنَّ الله تعالى "نهى المؤمنين أن يتخذوا الكافرين أولياء بالمحبة والنصرة من دون المؤمنين، ومن يتولهم فقد برئ من الله والله بريء منه" (نخبة من أساتذة التفسير (2009)، التفسير الميسر، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف - السعودية، ص ٥٣) .

ومن ناحية التوظيف للطباق ما يعكس الناحية البلاغية من جهة والإعجازية من جهة أخرى، ومثال ذلك ما جاء بهذه الصورة في قوله تعالى {قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (سورة آل عمران، الآية ٢٩)، فبلاغة المطابقة كامنة في ناحيتين كما يبرز في الآية السابقة ، فالأول منها ما يقتضيه وجه الإعجاز البلاغي في القدرة على التخيير بين أمرين الأول منها منافي للثاني (تخفوا أو تبدوه)، بمعنى إنَّ الاختيار عن طريق صورة التضاد ما يوقع المتلقي بحالة من الذهول لهذه الصورة ليتم تتبع السياق الوارد ليصل المتلقي إلى الحقيقة المطلقة من أنَّ الله يعلم كل شيء من المضمر و الظاهر.

وقد جاء في تفسير الحكم الإلهي من ذلك بأنَّ الخطاب موجّه للمؤمنين، "إن تكتموا ما استقرَّ في قلوبكم من موالاة الكافرين ونصرتهم أو تظهروا ذلك لا يخف على الله منه شيء، فإنَّ علمه محيط بكل ما في السماوات وما في الأرض، وله القدرة التامة على كل شيء"(نخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسر، مرجع سابق، ص ٥٣).

وقد يُساعد توظيف البديع المعنوي في تثبيت فكرة معينة والعدول عن أخرى يمكن أن ترد في الذهن، فيأتي الإطباق مفسراً للثابت الذي لا يُشك به، ومثال هذا التفسير ما جاء في نحو قوله تعالى {وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ} (سورة آل عمران، الآية ٨٠)، فالطباق الحاصل (الكفر، مسلمون) ما يفيد في تفسير الفكرة القائمة لاستحالة الأمر باتخاذ الملائكة والنبيين من دون الله للعبادة ، ذلك أنَّ فعل ذلك فيه من العدول عن ماهية الإسلام إلى الكفر، أي الانقلاب الأحوال في العبادة من غير الله ، فهذا غير جائز، لذلك فإنَّ بلاغة التصوير الخطابي يساعد على تفسير الصورة البديعية ومجالها الوظيفي كما نلاحظ .

وقد يكون بلاغة المحسن المعنوي ما يستدعي الربط بين السابق في الخطاب النصي وما يتم تفسيره عن طريق هذا المحسن، ومنه ما جاء عن طريق الطباق في الربط بين أجزاء الكلام نحو قوله تعالى {ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} (سورة آل عمران، الآية ١٥٤).

إنَّ بلاغة المطابقة تستدعي الربط بين مناسبة الآية الكريمة في التركيز على رحمة الله على المؤمنين من خلال إنزال الرحمة في قلوبهم ، إلا أنَّ طائفة منهم قد ضَعُفت عزيمتها وظنوا أنَّ الله لا يتم أمر رسوله، "وما جعل الله ذلك إلا ليختبر ما في صدوركم من الشك والنفاق، وليميز الخبيث من الطيب، ويظهر أمر المؤمن من المنافق للناس في الأموال والأفعال.. " (نخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسر، مرجع سابق، ص ٧٠).

ومن بلاغة المحسن البديعي المعنوي ما يكون عن طريق ما يُسمَّى باللف والنشر الذي يُدلي بأهمية المقابلة بين أطراف الجمل، واللف نقيض النشر، يدلُّ معناهما على الجمع والتفريق، "الطي والنثر هو أن تذكر شيئين فصاعداً إما تفصيلاً فتنص كل واحد منهما، وإما إجمالاً فتأتي بلفظ واحد يشتمل على متعدد وتفوض إلى العقل، و كل واحد إلى ما يليق به، لأنك لا تحتاج إلى أن تنصّ على ذلك" (الحموي (2004)، خزانة الأدب وغاية الأرب، تحقيق: عصام شقيو، دار ومكتبة الهلال-بيروت، دار البحار-بيروت، ١/١٤٩).

لذلك فإنَّ بلاغته تكون من خلال ذكر أشياء عدة على التفصيل والإجمال، وذكر ما يناسب كل واحد، وما يتصل به من غير تعيين ، اعتماداً على فهم المتلقي وعلمه بالقرائن اللفظية أو المعنوية، ومن مثاله ما جاء في قوله تعالى {إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ} (سورة المائدة، الآية ٣٣).

فمن بلاغة التوظيف للف والنشر، أنَّ اللف قد جاء على جهة الإجمال في النص السابق (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً) ، ثم جاء النشر بقوله (أن يقتلوا أو يصلبوا..)، فقد جمعت الآية الكريمة عناصر دلالية إجمالية تمثلت في لف الحكم الشرعي بمعان خفية تثير في نفس المتلقي ضرورة الوقوف على إحالة كل عنصر بما يفصّله بذكر الدال والمقابل له، وإلا أردنا تمثيل عناصر اللف بما يعطي خاصية المقابلة لعناصر النشر، وجدنا أنَّ عناصر اللف (القتل، أخذ المال، الإخافة ، إخافة السبيل والقتل) في مقابل عناصر النشر الموضحة (القتل، قطع اليد، النفي من الأرض، قطع الرجل ، قتل وصلب) .

ذلك أنَّ بلاغة هذا التوظيف تكمن في التركيز على أثر المصاحبة المعجمية لأن "كل مفردة من المفردات الملفوفة، لها ما يتصاحب معها من المفردات المنشورة، والأخيرة تأتي على ترتيب المفردات الملفوفة تارة، وعلى غير ترتيبها تارة أخرى.." (عبد المجيد جميل (٢٠٠٦)، البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، ص ١١٨).

وهكذا فإنَّ السعي للربط بين عناصر الطرفين المتقابلة يجعل الحقل الدلالي واحد، بمعنى إنَّ عناصر الطرف الأول لا يمكن أن تفسر بدون عناصر الطرف الثاني، لأنَّ النشر يساعد على فك ما كان ملفوفاً يحتاج إلى توضيح العلاقة بين الطرفين، وبذلك يتم إثراء الدلالة بما يمكن أن تحمله من إمكانيات تعبيرية تتعالق معاً لتكثيف الصورة ورد كل جهة منها إلى دلالته المقابلة .

ومن بلاغة اللف والنشر ما نلاحظه في النشر الذي يأتي على غير ترتيب اللف، ومثاله ما جاء في قوله تعالى {يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ، وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} (سورة آل عمران، الآية ١٠٦-١٠٧)، فالموازاة هي التي تثير الناحية البلاغية، فالعنصر الأول من اللف يوازي ما جاء في العنصر الثاني من النشر، والعنصر الثاني من اللف يوازي ويوافق العنصر الأول من النشر مع ملاحظة التقابل الدلالي بين الطرفين، فعناصر اللف (يوم تبيض وجوه ، يوم تسود وجوه)، وعناصر النشر (فأمّا الذين اسودت وجوههم) ، (وأما الذين ابيضت وجوههم)، وقد فسّر اللف في قوله تعالى "بدأ بهم - أي بالذين اسوّدت وجوههم لأنَّ النشر المشوش أفصح، ولأنَّ المقام للترتيب وزيادة النكاية لأهله" (البقاعي (د:ت)، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ج ٥، ص ٢٢)، فقد قُدّم البياض على السواد، وجاء النشر على غير ترتيب اللف (اسودّت وجوههم) فصار النشر على عكس ترتيب اللف، لأنَّ سياق المعنى القرآني استدعى هذا التغيير.

خاتمة ونتائج:

لقد خلص البحث إلى عدد من النتائج، من أهمها:

- يشكّل الفهم للمحسنات المعنوية تضافراً مع الأثر الجمالي الذ أتيح لكل نوع من المحسنات المعنوية كما جاء ماثلاً في عناصر علم البديع.

- يشكّل الطباق أحد أبرز المحسنات المعنوية مجالاً وأهمية نظراً لكثرة التعالقات التي تفسر جماليته في الإشارة إلى الشيء ونقيضه، ولا سيما أن هناك كماً كبيراً من آي القرآن الكريم يقوم على المقابلة بين أمر وغاية وحكمة إلهية.

• تتمحور بلاغة المحسن المعنوي في الفهم المقصود من ذلك التوظيف، لأن كل محسن وارد لا يمكن أن يكون للتزيين، وغنما ما يتجاوز ذلك للوصول إلى تقرير حالة الإعجاز التي قام عليها النص القرآني أساساً.

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم

1. ابن أبي الإصبع العدواني المصري عبد العظيم (٢٠٠٨)، تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، تحقيق : حفني شرف، دار المساهمة، مصر

2. ابن الأثير ضياء الدين (1998)، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، حققه الشيخ كامل عويضة، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت

3. ابن المعتز (1990)، البديع في البديع، دار الجيل

4. ابن عاشور، التحرير و التنوير (1984)، الدار التونسية للنشر - تونس

5. ابن معصوم (1969)، أنوار الربيع في أنواع البديع، تحقيق: شاكر هادي شكر، مطبعة النعمان، النجف الأشرف

6. ابن منظور، لسان العرب (1414هـ)، دار صادر، بيروت

7. البقاعي (د:ت)، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة

8. الحموي (2004)، خزانة الأدب وغاية الأرب، تحقيق: عصام شقيو، دار ومكتبة الهلال-بيروت، دار البحار-بيروت

9. الزركشي بدر الدين (١٩٥٧)، البرهان في علوم القرآن ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، عيسى الحلبي، دار التراث، القاهرة، ط١

10. الزمخشري (1987)، الكشاف، ضبطه وصححه ورتّبه: مصطفى حسين أحمد، دار الريان للتراث بالقاهرة - دار الكتاب العربي ببيروت

11. السكاكي (1987)، مفتاح العلوم، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان

12. الصافي محمود (١٤١٨هـ)، الجدول في إعراب القرآن، مؤسسة الإيمان، دار الرشيد، ط٤، دمشق، سوريا

13. عبد الكافي أحمد السبكي (١٤٢٣هـ)، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، ط١، بيروت، لبنان

14. عبد المجيد جميل (٢٠٠٦)، البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، الهيئة المصرية العامة، القاهرة

15. عتيق عبد العزيز (د:ت)، علم البديع، مكتبة دار النهضة العربية، ط١، بيروت

16. العسكري-أبو هلال (1419هـ)، الصناعتين، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العنصرية، بيروت

17. فتحي عادل (د:ت)، نماذج للمقابلة الجيدة وأثرها في الكلام، عادل فتحي ، بحث في دراسات بلاغية، قسم اللغة العربية – كلية اللغات، جامعة المدينة العالمية، شاه علم – ماليزيا

18. قادر فخرية (٢٠١١م)، تجليات الدلالة الإيحائية في الخطاب القرآني، سورة التوبة أنموذجاً، ط١، عالم الكتب الحديثة، أربد، الأردن

19. القزويني (د:ت)، الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل - بيروت

20. لاشين عبد الفتاح (1999)، البديع في ضوء أساليب القرآن، دار الفكر العربي، القاهرة

21. المراغي مصطفى (١٩٩٣)، علوم البلاغة والبيان، دار الكتب العلمية، ط٣، بيروت

22. معلوف لويس (د:ت)، المنجد في اللغة والأعلام، دار المشرق، بيروت

23. نخبة من أساتذة التفسير (2009)، التفسير الميسر، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف - السعودية

24. النويري شهاب الدين (١٤٢٣هـ)، نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة